بشار بن برد

للأستاذ أحمد حسنين القرنى

مقدمة

لكأن الأدب منذ كان ، وكانت السياسة — خصمها العنيد ، وهى عدوته اللدود ، لا ينتهى ما بينهما من نضال ، ولا يقف عند حد ، فالنصر دولة بينهما ، لا تستأثر هى بالغلبة وحدها ، ولا يختص بها بمفرده .

وليس الأدب من حيث هو أدب خصما للسياسة من حيث هى سياسة ، إنما تتمثل الخصومة فى رجال الأدب ورجال السياسة . الأولون بأقلامهم وبأقوالهم ، والآخرون بسيوفهم ومدافعهم . وما ذاك إلا لأن الأدب تزاع رجاله إلى الحرية البريئة المطلقة . والسياسة تزاعة رجالها إلى القهر والاستبداد . فطالما كانت الحرية خصما للاستبداد ، فالأدب خصم للسياسة .

ورجال السياسة يحتاجهم الأدب والأدباء ، ويفتقرون إليه وإليهم ، فيستدرجونهم حتى يمكن أن يستغلوا أثرهم فى النفوس ، وسلطانهم على القلوب ، فالأدب وحده هو الذى يستطيع الوصول إلى قرارة النفوس ، والدخول إلى الصميم من القلوب ، ولكن السياسة لا تقوم إلا على أساس من الأرهاب والأخافة ، ولهذا فبمقدار الأدب السياسى تكون سلطته الروحية على أعوانه وأنصاره .

وإذا استقر ذلك فى ذهنك عرفت لم قال موسى النبى مخاطباً ربه « وأخى هرون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى . إنى أخاف أن يكذبون » .

وعرفت كذلك لم منح الله نبيه محمداً سحراً وبلاغة ، وعرفت بعد ذلك أن السياسة لا بد لها من استخدام الأدب فى أغراضها وما ربها .

ولقد عد المؤرخون أن لغة العرب مدينة فى بقائها الطويل لأثر بيئتها فيها ، تلك البيئة التى كان أبرز ظاهرة فيها تقاتلهم المستمر ، وتطاحنهم على العيش ، وتزاحمهم على الحياة حيث يثيرون حفائظ القلوب ويبعثون كوامن الشجن بشعرهم وخطبهم ، فيثيرون حمية الجبان ، ويدفعونه إلى ميدان القتال بيد خفية هى يد الأدب القوية .

فالأدب والسياسة ، إذن ، لا يكادان يفترقان، ولكنهما فى الوقت نفسه عدوان لدودان . ولئن كان التاريخ قد حدثنا عن أدب مزق السياسة ، وبددها ، وشتت شملها فقد حدثنا كذلك عن سياسة جنت على الأدب جناية لها أثرها الباقى ولو فنيت القرون والأجيال.

* * *

بشار بن برد شاعر من فحول الشعراء ، له أسلوبه ، وله تجديده ، وله علمه العالى الخفاق ، وقد راح ضحية السياسة وجنت عليه ، فجنت على الأجيال التى تعاقبت منذ زمن الدولة العباسية حتى الآن ، وجعلت الجم الغفير يقتلون الأيام تلو الأيام ، ويضيعون السنين تعقبها السنون فى البحث عن شعره وأدبه اللذين راحا ضحية السياسة .

وهذا الأدب ، وذاك الشعر هما مناط بحثنا .

الدولة العباسية

١ـ عاشت الدولة الاموية ، ما عاشت، عربية الصبغة فى كل ناحية من نواحى حياتها ، يتلقى عظماؤهم وأبناء أمرائهم الأدب عن الصحراء وساكنيها ، ويستلهمون الشعر والأدب سماءها الصافية ، وبساطتها المغرية ، وظلوا كذلك حتى غمرهم النعيم ، وحتى تأمر مترفوهم ، فبدأت الشيخوخة تتمشى فيها عضواً فعضواً ، والفناء يدب فيها قليلا قليلا ، حتى قام بنو العباس ، يظاهرهم الفرس ، بدعوة خفية إلى دولة جديدة تثأر من بنى أمية الذين نكلوا بالحسين وأبنائه وأذلوهم . ونجح أولئك الدعاة ، أو إن شئت فقل نجح الفرس فى الرغبة التى توجهوا إليها ، وقام عبد الله السفاح خليفة يعمل السيف فى رقاب بنى أمية ، يقتل أبناءهم ، ويتولى على أموالهم ، يعضده أبو مسلم الخرسانى الذى اختلفوا فى أصله ونسبه ، ويكفيك أن تعلم أنه ولد بأصبهان ،مدينة من صميم مدن فارس .

لم يكن أولئك العباسيون بالمغمورين حتى يقال أقامهم الفرس وأحيوهم ، ولم يكن الفرس من التفاهة ، بحيث يصح للتاريخ أن يهمل ذكرهم . أو بعبارة أخرى لم يكن العباسيون بالنكرين للمعروف حتى يتجاهلوا ضيعة الفرس فأوسعوا لهم صدر المكان من حاشيتهم ، بل أقاموا عاصمة ملكهم على حدود بلاد فارس ، لتكون همزة الوصل بين المتعاونين ، وفتحوا لهم باب المراكز على مصراعيه فولجوه ، وصاهروا العرب ، وأفرخوا فى ذلك العش الأمين ، وامتزجت أنسابهم بأنساب العرب حتى لم يعودوا يتميزون عنهم .

ومات السفاح وورثه فى ملكه أبو جعفر المنصور ، وترسم خطوات سالفه .

إلا أن الطبيعة دائماً تبعث فى قلب الأصيل خوفاً مزعجاً من الدخيل ، وذلك الخوف هو الذى جعل المنصور يهدر دم أبى مسلم ساعدهم ومعينهم على قيام دولتهم، بل الآخذ الحقيقى

بيده إلى أريكة العرش يستوى عليها ملكا بأمر فيطاع . وقد قدمت لك أن العباسيين من صميم العرب يعرفون للجميل مكانته ، فلم قتله ؟ ولم أهرق دمه ؟

أمران كانا يتنازعانه — بلا ريب — قبل القضاء على أبي مسلم : اعترافه بالجميل له ، وفرقه من هذا الدخيل . وكلما هب بترجيح أحد الأمرين وقف له الآخر حائلا حتى أمعن أبو مسلم فى شعوبيته وغرق فيها ، وعندئذ استباح قتله آخذا بسبب ظاهرى تافه . فوضع القتل أساسا سيكون له أثره فى شاعرنا المترجم له ، بل فى نكبة البرامكة التى سيظل التاريخ يذكرها وحسبك الآن أن تذكر أن أبا جعفر المنصور هذا هو والد المهدى الخليفة الذى عاصره شاعرنا وتقرب منه ثم نكب لحسابه ، وأن تعلم كذلك أن بشارا من اصل فارسى ، كما أن ابا مسلم من اصل فارسي ، وأن بشارا أديب ، والمهدي سياسى ، فان عرفت هذا جميعه ، وعرفت ما قدمناه لك من مستحكم العداء بين الأدب والسياسة استطعت أن تكون لك رأيا يعضد رأينا فيما سنذهب اليه فى تعليل نكبة بشار .

(٢) وإن يكن التاريخ لم يقطع بأقدمية تاريخ الفرس عن تاريخ العرب الا انه جزم بأسبقيتهم فى العلوم والسياسة والحكمة ، وابناؤهم الذين امتزجوا بالعرب ، إنما داخلوهم وهم على ما هم من بصر بالعلم والأدب والسياسة والحكمة ، وحذقوا اللغة العربية وتلقوها عن جلة علمائها ، فأصبحوا قادرين على صياغة الأفكار الفارسية في القالب العربى الرصين . فبزوا العرب فى الأخيلة الشعرية الرائعة ، والمعانى الأدبية السامية وكونوا للأدب دولة فارسية تقوم الى جانب الدوله العربية السياسية .

لكل هذا اصطبغت الدولة العباسية بالصبغة الفارسية فى الأدب وخالفت فى ذلك الدولة الأموية .

(٣) فى طليعة السنة الخامسة والخمسين من الهجرة كان فى البصرة رجل من اصل فارسى من سبي المهلب بن أبي صفرة منكوبا فى بنيه لا تلد له زوجته إلا كل من شوهته الطبيعة وكانت تلك الزوجة في حمل يدنيها من الوضع ، وكان الأمل يحيي هذين الأبوين ، والاحلام توحى اليهما صورة مولود فتان الطلعة ، أو على الأقل صحيح البدن ، ثم يأذن الله أن تأتى الساعة التى يتحقق فيها أملهما أو يفجعان فيه ، واذا بالزوجة تتمخض فتلد ، ويتحطم الامل بولادة طفل أكمه ، أعمى ، جاحظ العينين ، قد تغشاهما لحم أحمر مفزع .

ذلك الأب هو برد بن يرجوخ الفارسي الأصل ، العقيلى بالولاء إلى بنى عقيل العرب ، وذلك المولود هو بشار بن برد .

ويأبى القدر السادر فى قسوته أن يدع بشاراً فى تلك الخلقة المشوهة التى كونه عليها ، وعلى هاتين العينين السيئتين اللتين سرى سيرهما مسرى المثل حتى قال المخلد بن على السلامى

وهو يهجو ابراهيم بن المدبر ويدعو عليه :

رأيتك لا تحجب الود إلا إذا هو كان من عصب وجلد
أراني الله وجهك جاحظياً وعينك عين بشار بن برد

لم يدعه القدر على هذا المظهر المفزع حتى أحل به بلاء الجدرى فزاده سوءا على سوء، وحتي رمى جسمه بالافراط فى السمن فصار أعجوبة الناس فى القبح والشناعة ، وحتي قال عنه الأصمعي « وصف بشار فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعهم منظراً » بل حتي ليقال إن امرأة أزعجها بكاء طفلها ، وأعجزها السبيل إلى إسكاته بشيء يفزع له و يخاف منه فلجأت إلى صائغ ترجوه أن يصطنع لها « عفريتاً » تخيف به هذا الطفل الذى ابتليت بنحيبه المتواصل وإذا الصانع يردها خائبة لأنه لم ير عفريتا فيصوره ، وإذا هى توالي البحث عن وجه مخيف فلا تجد إلا وجه بشار كفيلا بأسكات هذا الطفل المتمرد فتحتال عليه حتي تصل به إلى الصائغ . وهناك تقول له في سذاجة (ها هو سيدى فافعل) و يجيبها الصائغ ، و يقف بشار مبهوتا لا يدرى مما يدور حوله شيئا . ثم يتهدد الصائغ فيفضي اليه بالأمر و يكتم عنه اسم المرأة .

و ينصرف بشار وفى قلبه حفيظة على الناس ، وفي صدره نقمة على القدر . أما نقمته على القدر فلم تبلغ من القدر شيئا ، وأما حفيظته على الناس فستتبين أثرها فيما سنورده عليك من شعره وأدبه

احمد حسنين القرني
مدرس بمدارس النهضة المصرية الثانوية وكلية الفرير

الجمال فى النثر

(بقية المنشور على الصفحة رقم ٩٧٨)

الالهى القديم فهو على سبيل الأفاضة لمجرد الكرم الالهى والرحمة (وهي تنزله آية آية بواسطة الاله واتصال عناية بمخلوقاته . إنما الحادث هو هذه المقاطع الصوتية والحروف الحية وقد قيل:

صورته جمالك عنا وإننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى

والبيت فارق صحيح بين جمال المادة الذى يحده العقل لأن له حدوداً دقيقة فى الجمال الروحى.

ومن هنا تدرك إدرا كا تاماً أن جمال الكلام الالهى لا يتصور له حدود فكلما غاص العقل بحثا فى محاسنها إزداد اقتطافا لأزهاره ووروده

محمد زاكى عثمان